

قبل أن تقرأ هذا الكتاب

- ١ -

مَنْ أَنَا؟*

لَمَّا كَانَ الْغَرَضُ مِنَ الدِّيَانَاتِ هُوَ التَّوَاصُلُ بَيْنَ اللَّهِ ﷻ وَبَيْنَ سَيِّدِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ، كَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ يُخْبِرَنَا اللَّهُ ﷻ بِحَقِيقَتِنَا وَبِالْعِلَّةِ مِنْ وَجُودِنَا فِي بَدَايَاتِ آخِرِ كِتَابِهِ السَّمَاوِيَّةِ؛ لِذَلِكَ جَاءَ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

عَرَفْتُ مِنَ الْآيَةِ أَنِّي خَلِيفَةٌ مِنَ اللَّهِ ﷻ فِي الْأَرْضِ...

وَعَرَفْتُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ تَطَلَّعَتْ إِلَى تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ...

وَعَرَفْتُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ اعْتَقَدَتْ - خَطَأً - أَنَّ التَّسْبِيحَ وَالتَّقْدِيسَ هُمَا مَبْرَرِ الْاِسْتِخْلَافِ...

ثُمَّ بَيَّنَّ الْحَقُّ ﷻ مَسْوَغَاتِ الْاِسْتِخْلَافِ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّادِمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

بِذَلِكَ أَخْبَرَ اللَّهُ ﷻ مَلَائِكَتَهُ أَنَّ مَسْوَغَاتِ الْخِلَافَةِ هِيَ الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ...

(* هذا الجزء بعنوان (من أنا؟!) من وحى كتاب: الدين والعلم وقصور الفكر البشرى، للدكتور مهندس محمد الحسينى إسمايل، عام ١٩٩٩ - مكتبة وهبة.

ثم يوضح الله ﷻ للإنسان حقيقة وجودية باقية ما دامت السموات والأرض: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣٤).

أسجد الله ﷻ الملائكة لآدم لما يتميز به من علم ومعرفة...
من ثم، يصبح التسبيح والتقديس تابعين للعلم والمعرفة... يا الله...
ولكن...

هل العلم وحده كاف لإنقاذنا؟... تظهر الإجابة عن هذا السؤال في قول الله ﷻ:

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٥) فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ [البقرة].

لا... ليس العلم وحده كاف لإنقاذنا

فآدم تعلم الأسماء كلها ورسب في أول امتحان للذات...

لماذا؟

لم يذكر لنا القرآن الكريم مقاومة من آدم لإبليس...

كان آدم على الفطرة... كان لا يزال في ساحة البراءة...

كان آدم عالمًا... ولم يك كاملاً...

فالاكتمال يتطلب الإنضاج بنار الاحتكاك بالآخرين...

إن الذين يعتزلون العالم ليسوا بكاملين... لم تنضج ذواتهم...

كان إبليس جزءاً ضرورياً من القصة... فهو يخدمنا...

الشر الذي نهزمه يخدمنا... إنه نضج وإثراء واكتمال...

يرقينا حتى نصل إلى سدره متتهانا...

ذاق الإنسان الشجرة المحظورة... واستطابها...

وما زال يحوم حولها... تارة يجاهدها... وتارة يستلذها...

لم يكن خروج آدم من الجنة عقوبة نتحمل توابعها...
فنحن لم نذق طعم الجنة... لم نُعانِ استشعار الفرق...
الإسلام لا يعترف بالخطيئة الأصلية...
ما حدث لأبويننا كان تمهيداً لبداية قصتنا...
التي هي فرصةٌ وتحد...

ثم بين الله ﷻ لنا الحكمة من المعرفة ﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٣٧﴾ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ [البقرة].

تفجرت العبادة من ينبوع المعرفة والمعاناة والتجربة...
لم تولد المعرفة من رحم العبادة...
ليست المعرفة فضيلة أو ضرورة... إنها استكمال للإنسانية...
نشأ آدم في الجنة... في المجرد... بذلك تتساقط نظريات تشكيل الإنسان بالتاريخ، أو
الاقتصاد، أو التنشئة، أو العُرف...

صار آدم بنفخة الروح خلقاً آخر... ذو تطلعات غيبية سهاوية...
سجود الملائكة تكريم وتشريف... واستثنائية إزاء الكون كله... ارتقى الإنسان حتى
تجاوز الملك... ليس في القرآن آية تقول إن الملائكة تؤمن... فالإيمان خصيصة إنسانية... تحمل
معنى البحث والاستدلال والتجريب والترقى... انظر قصة تفرس إبراهيم نش في السماء...
انظر قصة طلبه من الله ﷻ أن يريه كيف يُحيى الموتى...

أكرم تعريف للإنسان أنه الكائن المتسائل الباحث عن الله ﷻ...
حتى وإن عبدَ حجراً...
كائن يتردد بين نقيضين... أسفل سافلين... ودُرا الأنبياء والصالحين...
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن
دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ [الشمس].

أنا كائن حُرٌّ مختار... .

قال تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ...»

ولم يقل: إِن حَمَلْنَا الْأَمَانَةَ

سُئِلَ عبد الله بن المبارك: لو قيل لك هذه آخر ساعة من عمرك، ما أنت فاعل فيها؟! قال:

أطلب فيها العلم...

من هذا المنهل رضعت إدراكي بذاتي...

وعلى هذا فُطمت...

- ٢ -

كم ضللوني عن ذاتي الإنسانية...

من نكد الدنيا على الإنسان المعاصر أن صار يحيا في ظل حضارة مادية بحتة، جعلت منه مسخًا مشوهًا وسجنته في إطار حيواني ثلاثي:

منتج: كما تنتج الأبقار اللبن.

مستهلك: كأكالات الرّمم.

مستمع: أشدَّ شَبَقًا وشرهة من كل حيوانات الأرض.

وفي ظل هذه الحضارة، صار «توازن الرعب» هو الرادع لنا عن الاعتداء على الآخرين (على المستوى الشخصي ومستوى الدول)، وليس القيم والأخلاق والدين.

كم أهانوني ووصفوني بالأعاجيب...

وصفني الفيلسوف أفلاطون بأني ... حيوان سياسى.

وصفني الفيلسوف أرسطو بأني ... حيوان اجتماعى.

وصفني الفيلسوف ماركس بأني ... حيوان اقتصادى.

وصفني الفيلسوف سان سيمون بأني ... حيوان مُصنَّع.

وصفني فيلسوف العدمية ديفيد هيوم بأني ... حيوان منحط.

وصفنى فرويد بأنى... حيوان شهوانى.
اجتث دارون جذورى السماوية... وأرجع نشأتى إلى الصدفة والعشوائية.
ووصفت أيضًا بأنى: حيوان ناطق... حيوان ضاحك... حيوان تليفزيونى...
والقائمة تصينى بالصداع والدوار، وتنزعى من إنسانيتى، وتسمنى بالحيوانية، وبها هو
أدنى.

حتى إن (جون واطسن) مؤسس علم النفس السلوكى، لا يسوغ الحديث عن علم نفس
إنسانى وآخر حيوانى، بل يعتبر أن الفرق بين سلوكيهما فرقاً كمياً وليس كيفياً، ومن ثم يدعو
إلى علم نفس واحد يندرج ضمن العلوم الطبيعية.

كم مزقونى بين المتناقضات ...

يرى فيلسوف المادية جون لوك أن الإنسان لا يتمتع بفترة أخلاقية، لكن المجتمع هو
الذى يشكل له ضميره!. وسار على دربه دوركايم، إذ رأى أن الإنسان إناء يملأه المجتمع، أى
أن الأخلاق والضمير والدين «نبت اجتماعى».

ويرى آخرون (مثل آدم سميث) أن آلة الإنتاج هى التى تُشكّل الإنسان، أى أن «الأصالة
للاقتصاد». بينما رأى خصمه ماركس أن الأصل هو «جدلية التاريخ»، أى الصراع!

وإذا كان نيتشه يدعى أن الإله والدين من «إبداع الضعفاء» ليصبراهم على بلواهم،
وليستجدوا الأغنياء باسم السماء، فإن ماركس يدعى أن الإله والدين من «إبداع الأقوياء»
ليسيطروا به على الضعفاء، ويهونوا عليهم واقعهم المرير!

وهذا آدم سميث يوافقنا على أن الإنسان «خيرٌ بطبعه»، بينما يرى مان فيلد أن «الشر هو
الأساس»، ولو اختلفى الشر لتساقطت المجتمعات!

هل رأيت - قارئى الكريم - التناقض الصارخ بين نظرة رضعتهما وفطمت عليها (عرضتها
تحت عنوان: من أنا؟!)، نظرة سمّت بالإنسان إلى ذرا السموم، وبين نظرة مادية مطلقة هوت
به إلى أسفل سافلين.

ألا ترى أن الإنسان فى حاجة إلى رد اعتبار...

من أجل ذلك جاء هذا الكتاب.

من عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ

حدثتكَ فيما سبق عن بعض صفات وسمات ذاتي الإنسانية، وسأحدثك عن الكثير منها عبر فصول الكتاب. وإذا كان العنوان الفرعي للكتاب «من عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ» - الأَرَجَحُ أنه لحكيم العرب يحيى بن معاذ - فإنني أطمح أن تُقَرِّبُنَا هذه الدراسة من فهم بعض أسماء وصفات ربنا ﷻ. فالغاية الأولى من هذه الدراسة المزيد من التعرف على الذات الإنسانية من أجل المزيد من التعرف على الله ﷻ، فهو الغاية الأولى من الخلق^(١).

ويرى الشُّرَاح لهذا القول معانٍ شتى، منها أن الأمور تُعَرَفُ بأضدادها. فمن عَرَفَ ضَعْفَ نفسه عرف ربَّه بقوته، ومن عرف عَجْزَ نفسه عرف ربَّه بقدرته، ومن عرف فَقْرَ نفسه عرف ربَّه بغناه، ومن عرف جَهْلَ نفسه عرف ربَّه بعلمه... ومن ثمَّ، إذا عرفنا أنفسنا بكل ما فيها من نقائص ومحدودية، عرفنا بعض ما عليه ربنا من كمالات وإطلاق. وفي ذلك يقول ابن عطاء الله السكندري في حِكْمِهِ: تحقّق بأوصافك يَمُدُّك بأوصافه، وتحقّق بذلك يَمُدُّك بعزته، وتحقّق بعجزك يَمُدُّك بقدرته، وتحقّق بضعفك يَمُدُّك بحوله وقوته.

ويرى آخرون، أن الله ﷻ قد أعطى الإنسان شيئاً من صفاته؛ فأعطاه من علمه، وحلمه، وغناه، وقدرته، وإرادته، وصبره... مع الأخذ في الاعتبار أن هذه الصفات في حق الله ﷻ ذاتية، كاملة، مطلقة، أما في حق الإنسان فهي مُعَارَة ناقصة محدودة كمّاً وكيفاً.

وقد كان منح الله ﷻ الإنسان شيئاً من صفاته أمراً ضرورياً، حتى تتحقّق معرفة الإنسان بربه، وهي الغاية القصوى من الخلق. ذلك أن إدراكنا لمعاني أسماء الله ﷻ وصفاته لا يكون إلا إذا مارسنا وتذوقنا هذه الأسماء والصفات. فكيف ندرك معنى اسم الله «الحليم» ما لم نكن قد مارسنا الحلم، وكيف ندرك معنى اسمه ﷻ «المريد» ما لم نمارس حرية الإرادة، وكيف ندرك معنى اسمه «الرحمن» ما لم نمارس الرحمة. لذلك جاء في الحديث الصحيح: من لا يَرَحِمُ لا يُرَحَمُ^(٢)، أي إذا أردنا أن نُعَامَلَ بصفة الله ﷻ (الرحمن الرحيم) علينا أن نتخلّق بالرحمة.

(١) في تفسير عبد الله بن عباس لقول الحق ﷻ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات] أن معنى «ليعبدون» هو «ليعرفون».

(٢) رواه البخاري.

كذلك كان حصول الإنسان على بعض من صفات الله ﷻ أمر ضروري للقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، فكيف يقوم جاهل عاجز مسلوب الإرادة بحق الخلافة من الله، أليس من الحتمي أن يكون للمستخلف بعض صلاحيات من استخلفه؟ من ذلك نفهم لماذا جعل الله ﷻ تسيير شئون الكون من خلال قوانين وضعها وألزم مخلوقاته بالخضوع لها، وقام في نفس الوقت بكشف هذه القوانين للإنسان تدريجيًّا حتى يتسنى له استغلالها في التعامل مع الطبيعة.

لذلك أسأل مَنْ يقرأون قول الحق ﷻ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس]، ويفهمون أن المقصود من «كن فيكون» الامتثال المباشر «الأنى» خارج إطار الأسباب، أسألهم، وكيف يتسنى للإنسان أن يكون خليفة في أرض تُدار بكلمة «كن»، في حين أنه لا يملك سر تفعيلها!! إن استجابة الوجود للأمر «كن» يكون من خلال السنن والقوانين. فإذا كنا أنا وأنت قد خُلقنا بكلمة كن فقد تطلب ذلك بقاءنا في الأرحام فترة تسعة أشهر كاملة.

هذا وسلاحظ مما ذكرنا في بداية المقدمة، ثم سنتولى توضيحه (قدر المستطاع) عبر فصول الكتاب، أن إدراك حقيقة الذات الإنسانية أمر بعيد المنال، وأنا عاجزون عن ذلك بالرغم من كل ما أوتينا من علم وفلسفة، فما بال أقوام يتباحثون في الذات الإلهية ويسعون لإدراك حقيقتها، ويتخذون عن العجز عن ذلك مبررًا للإلحاد بالوجود الإلهي. وقد أعجبني في الرد على هؤلاء بيتين من الشعر الصوفي حفظتهما في صباى، يقول فيها أبو عبد الله الجلاء:

كَيْفِيَّةُ الْمَرْءِ لَيْسَ يُدْرِكُهَا كَيْفِ كَيْفِيَّةِ الْجَبَّارِ فِي الْقِدَمِ!
هُوَ الَّذِي أَحْدَثَ الْأَشْيَاءَ مَبْتَدَعًا كَيْفِ كَيْفِيَّةِ الْمَسْتَحْدَثِ النَّسَمِ!

سبحان الله ﷻ

الذي ليس كمثل شىء.

- ٤ -

حَوْلَ الْكِتَابِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ

تحيل كائنًا فضائيًّا هبط (وليكن من كوكب المريخ) إلى كوكبنا الأرض، وكان هبوطه ليلاً، الأرجح أنه سيختار إحدى المدن مكانًا لهبوطه، فهي مليئةً بالأنوار. ربما كان أول ما سيلفت

نظر جارنا المريخي هو غزارة تواجد الكائن الأرضي في كوكبنا، فالمدينة المزدهمة ستشعره بأننا أكثر الكائنات تواجدًا فيه.

ولاهتماماته السياحية المتأصلة - وهذا ما جاء به إلى الأرض - قام الكائن المريخي بعدة جولات في المدينة وما حولها، فلاحظ ظاهرة سلوكية إنسانية غريبة، وهي تعدد نشاطات الإنسان واهتماماته وهيئاته. رأى بعض الناس في المكتبات والمدارس منكبين على كتب يقرأون فيها ويدرسون، ورأى بعضنا يجرى وراء جسم صغير كروى الشكل يركلونه بأقدامهم وآخرين متحلقين حولهم يصفقون لهم ويهللون. ورأى أقوامًا من الرجال والنساء أشباه عرايا يرقدون فوق الرمال ليصطلوا بأشعة الشمس ثم يجرون إلى البحر ليلقوا بأنفسهم فيه، وفي الوقت نفسه رأى آخرين (رجالًا ونساء أيضًا) يتسربلون بالملابس من قمم رؤوسهم إلى أخامص أقدامهم. ورأى في بنايات نظيفة هادئة أقوامًا مُصْطَفِّين في صفوف يرفعون أيديهم ويركعون ويسجدون ويبتهلون. وفي مدينة مجاورة رأى أقوامًا يتصارعون بالأيدي وبنصال لامة، وقد يوجه بعضهم آلات حديدية تجاه آخرين فيسقطون قتلى... رأى.. رأى.. ورأى من الأشياء العجيبة ما أثار اندهاشه من هذا الكائن الأرضي.

أراد الكائن المريخي أن يتوصل إلى حقيقة جاره الأرضي، فبحث عنمن يسأل، فدلوه على مكان شاسع مليء بالبنائيات التي تفصل بينها مساحات خضراء، ويطلقون عليه اسم «الجامعة»، وأخبروه أن بها الكثير من العلماء المتخصصين في شأن «الإنسان». قضى الزائر أيامًا عديدة في مكاتب الجامعة، يستمع إلى ما يطرحة عليه الأساتذة المتمرسون العالمون بالإنسان، وخرج من هذه الزيارات أكثر حيرة من ذي قبل!. فهذا الخبير أخبره أن الإنسان عبارة عن دوائر كهربائية كتلك التي تضيء في سقف الغرفة وربما في مركبته الفضائية. وهذا أخبره أن الإنسان عبارة عن تفاعلات كيميائية، بل إنه مزج أمامه كميتين ضئيلتين من سائلين فتفاعلا وخرجت منهما أبخره ساخنة، وقال له الأمر هكذا!. وفهم من آخر أن الإنسان إنما هو سليل لتلك الحيوانات التي رآها تقفز بين الأشجار في حديقة الحيوان، بينما أكد له غيره أن الإنسان كائن متفرد مُتَّسِم وأنه خليفة في الأرض من الإله خالق هذا الكون وخالق كوكبه المريخ.

تحدث ضيفنا في الجامعة مع هؤلاء العلماء المتخصصين في الفيزياء، ثم الكيمياء، ثم البيولوجيا، ثم الشريعة الإسلامية. بل وتحدث إلى آخرين قدموهم إليه باعتبارهم أساتذة في الفلسفة وفي علم النفس وفي علم الاجتماع، وفي.. وفي.. فأسمعوه كلامًا لا يقل غرابة وتباينًا

عما سمعه من السابقين، فازدادت حيرته بخصوص هذا الكائن الإنساني شديد التعقيد، وقرر أن يوجه جهوده الرامية للتواصل مع الحضارات الكونية إلى كوكب آخر، فربما عثر فيه على كائنات أكثر انسجامًا وأكثر تناغمًا وأكثر بساطة وقابلية للفهم.

جال بخاطري هذا السيناريو التخيلي بينما كنت أتابع إحدى جلسات المؤتمر الحادى عشر لشركة الإبداع الأسرية بالكويت، والذي انعقد في شهر يناير من عام ٢٠١٢، وكنت قد دُعيت للمشاركة في فعالياته بإلقاء محاضرتين لاقتا قبولاً حسناً. كان عنوان المؤتمر الذى أثارنى وحفزنى للحضور هو «أنا... روح، عقل، عاطفة، جسد»، وربما أدركت - قارئى الكريم - أن موضوع المؤتمر هو الذى استثارت الخواطر التى تواردت فى ذهنى عن هذا الزائر المريخى، الذى احتار حيرة شديدة فى فهم جاره الإنسان. ومن وحي عنوان المؤتمر بزغت فكرة تأليف كتاب عن هذه الـ «أنا» الغامضة، لا ليكون دليلاً للكائنات الفضائية التى قد تزور كوكبنا - فالأرجح أنها لا تتقن لغتنا العربية - بل ليكون دليلاً لنا نحن البشر ليعرف كلُّ منا الآخر، وقبل ذلك، ليعرف كل منا نفسه^(١).

والمنهج الذى اتبعته فى عرض فصول الكتاب، هو أن أعرض فى بداية كل فصل بعض المفاهيم المتعلقة به وأحللها، وربما أطرح حولها بعض التساؤلات، ثم أعرض المزيد من الأفكار عن طريق إدارة حوار مع عالمٍ معاصر - التقيت به أو لم ألتق - على التخصص فى هذا المجال.

تستطيع - قارئى الكريم - أن تعتبر أن حواراتى مع شخصيات الكتاب حوارات أكثر من حقيقية!! فقد تمت الفعل بين عقولهم أثناء دراستى لكتاباتهم. فقد كنت كلما قرأت فكرة أعمل فيها عقلى مُحللاً وناقداً، وكثيراً ما كنت أجد الكاتب بعدها (أو فى موضع آخر) يجيب عن تساؤلاتى. ألا ترى أن هذه الحوارات ربما كانت «أكثر حقيقية» من الكثير من الحوارات التى تدور بين شخصين يلتقيان وجهًا لوجه. وقد اخترت أن أستعين بأسلوب الحوار فى فصول الكتاب لأنه يسمح ببسط الأفكار بشكل أكبر وأيسر فهمًا، كما يُعين فى تحليل الأفكار واستيعابها وتذكرها.

(١) أعجبنى شعار المؤتمر، فاستأذنت أن أقتبس منه جزءاً عند تصميم غلاف كتابى هذا. والشعار من تصميم الأستاذة منيرة القناعى وبخط الأستاذ جاسم المعراج. وستعرف سر إعجابى بشعار المؤتمر عند مطالعتك للفصل الأول من الكتاب، تحت عنوان: أنا... ذات فنانة متذوقة للجمال.

القارئ الكريم

قد يبدو الكتاب من النظرة الأولى غير متناسق، فهو يحوى موضوعات شتى، تتراوح بين البيولوجيا، والفيزياء، والكيمياء، والطب، وعلم النفس، والطب النفسى، والفلسفة، والأنثروبولوجيا (علم الإنسان)، والدين. ولكن أليست الـ «أنا» على هذا التباين، بل أشد. إن الخيط الذى ينتظم هذه اللآلى التى انتقيتها لك هو «الذات الإنسانية».

وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب، تضم عشرة فصول. الباب الأول هو «أنا... فى العلوم الطبيعية»، ويشتمل على خمسة فصول: الأول «أنا... ذات عاقلة»، أتعرض فيه للسلمات التى تميز الإنسان ككائن يتفرد بالعقل. والفصل الثانى بعنوان «الوعى يقهر اللاوعى» ويركز على كيفية برمجة العقل اللاوعى بأفكار سلبية تتحكم فى مصائرنا، وإمكانية إعادة البرمجة بأفكار إيجابية. والفصل الثالث بعنوان «لست روبروتاً» وندحض فيه مفهوم الحتمية البيولوجية الخاطى، والذى يصورنا ككائنات لا إرادة لها. والفصل الرابع «قوى الإنسان الخفية»، وهو فصل شديد الأهمية، إذ يتعرض بالأدلة العلمية لأحد أخطر المجالات المسكوت عنها، وهو مجال طاقات الإنسان الحيوية، مما أدى إلى سوء استغلالها من قِبل الدجالين وجامعى الثروة. ونتعرض فى الفصل الخامس «كيف صرْتُ بشراً» لنشأة الإنسان بألية التطور الموجه عن أسلاف أدنى منه.

والباب الثانى بعنوان «أنا... فى العلوم الإنسانية»، وتناول فى الفصل السادس منه نظرة العقل الإنسانى للذات الإنسانية، من خلال طرح آراء بعض الفلاسفة الذين تناولوا هذا الموضوع، والفصل بعنوان «أنا... فى المرأة». وفى الفصل السابع «هكذا بنيت الحضارة» نعرض ملحة رحلة الإنسان الحضارية، من أطواره البدائية إلى الحضارة المعاصرة. لكن هل حققت الحضارة الحديثة طموحات الإنسان؟ وهل حقق من خلالها ذاته الحقيقية؟ أم أن المسار الحضارى قد انحرف به عن فطرته، وهذا ما سنعرضه فى الفصل الثامن بعنوان «جعلونى مسخاً مشوهاً».

بعد هذه الجولة مع نظرة العلوم المختلفة للذات الإنسانية، يأتى أوان الكلمة النهائية التى تنظر إلى الإنسان باعتباره كلاً واحداً متكاملًا، ولا يكون ذلك إلا لخالق الإنسان، الذى لا يعلم عنه «الظاهر» فحسب، بل يعلم عنه «السّر وأخفى»، لذلك جاء الباب الثالث حول «أنا... فى القرآن الكريم»، وهو من فصلين: الفصل التاسع بعنوان «الذات الإنسانية فى القرآن الكريم»

ونتناول فيه مكونات الذات الإنسانية كما وردت في القرآن: الجسد - القلب - العقل - النفس - الروح. ونختتم رحلتنا بالفصل العاشر بعنوان «أنا.. والموت» ونطرح فيه مفهوم الموت بالمنظور العلمى والمنظور الدينى، وعلاقة الروح بالموت، والفرق بين الموت والوفاة!

ونختتم الكتاب بحصاد الرحلة، الذى نقطف فيه ثمارها.

وفى ختام المقدمة، ينبغى أن أشيد بجهود مجموعة من المثقفين الذين شاركوا فى جمع المادة العلمية لفصول الكتاب وأيضاً فى تبادل وتنقيح بعض أفكاره. وهؤلاء هم د. محمد عمرو شريف مدرس مساعد الطب النفسى بجامعة عين شمس، واستشارى الأشعة التشخيصية د. أحمد جلال، والمهندس حسام مؤنس، وأحمد عمرو شريف الطالب بكلية الطب، ومنازل رأفت معيدة اللغة الإنجليزية، والأطباء والطبيبات بمستشفيات جامعة عين شمس: محمد طبال، آية عبد السلام مجاهد، سلمى المختار، سارة عبد القادر، آية أبو اليسر، ياسمين يسرى. فلهم منى جميعاً الشكر.
